حديقة المقتطف

رابندرانات تاجور

الفصل الثالث

مدرسة تاجور

لمحمود النجوري

مدرسة تاجور

— ٣ —

لمحمود المنجوري

ويلتفت تاجور ، بعد اذ يقرر ان المدنية الهندية انما نشأت في الغابة مستمدة حريتها وتفكيرها وعناصرها ومقوماتها من حقائق الحياة البشرية التي لا تحدها اسوار المدينة ولا تكتنفها حدود الممالك الموضوعة ، يلتفت تاجور بعد هذا الى المدنية الغربية فيقول :

« وترى الغرب قد أخذته العزة كبراً ، فيحسب ان الشرق يعيش كلاً على الطبيعة ويتقبلها فتأثيره كأنه وإياها في خصام دائم ، وإنما لن تنيله من أمرها شيئاً ، إلا ما قد يغتصبه منها اغتصاباً ، وانه معها على غير هدى أو تفاهم ، إلا بالقدر الذي يحرفه الشرق عن حقائقه وأوضاعه »

هذا هو وحي المدنية الغربية ، المدنية التي نشأت بين الجدر والاسوار ، والتي لا تدع للشعور نمواً ، ولا تترك للتفكير مجالاً للسمو في آفاق غير محدودة

« في حياة المدينة ترى الانسان قد جبل على توجيه قواه العقلية في مجرى حياته الخاصة ، وشئونه التي تتصل بمطامعه — وهذا الجهد يقيم فاصلاً مصطنعاً ، بين روح الفرد وبين الطبيعة الجامعة التي تحتضنه وتؤويه

« ولكن وحي الهند يختلف عن هذا الذي يوحي به الغرب ، إذ أنه يتضمن العالم قبل الانسان ، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى ، ومدنية الهند تهتم بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة ، وتشعر بأن الانسان قد لا يشعر بما حوله من كائنات ، اذا لم تقم بينهما الالفة والتفاهم الصحيح ، وملاءمة الانسان من الطبيعة تقوم دائماً في الشكوى من أنه لا يحصل على التافه من مطالبه وضرورياته منها إلا بمجهوده الخاصة ، ويشكو يكتسب لا بد أن يعمل ويجهد ، هذا حق ، إذ ليست مجهوداته ذاهبة هباء أو عبثاً ، انه يجني كل يوم ثمرة النجاح ، وهذا يدل على وجود رابطة عقلية بينه وبين الطبيعة وما بينها من كائنات ، فلا يمكن ان تجري خدمة في حورتنا مالم يكن قد أصبح متصلاً بها تمام الاتصال » (١)

فتاجور يرد كل مدنية الى طبيعتها ، ويرى ان حضارة الغرب نشأت نشأة تدعو الى الانانية ، لانها نشأت محصورة في مطالب الانسان ، الذي جنى على نفسه ، فحدد تفكيره بحدود مصنوعة ، وقيد مشاعره بأوضاع ضيقة ، فنشأ وهو يشعر بأن الطبيعة خصم له ، عليه ان يفكر في اخضاعها واستغلالها لرغباته ومطالبه ، وان هذا العالم لا بد ان يتغلب هو عليه ليقيده حتى يسوده — بينما الحضارة الهندية على نقيض هذا ، نشأت في حرية لا حد لها ، وكان مهمة العقل الشرقي ان يدرك من الحياة حقائقها ، لا ان يبسط عليها نفوذه ويناصبها العداء ، وفي هذه

---

(١) سدهانا ، ص ١

منتظر الى ان يرتق العلاقة بين نفسه وبين الطبيعة ، وينفي عن نفسه هذه العزلة وهذه الوحشة التي تدعوه الى التفكير في السيطرة والسيادة والشعور بالفردية ، وهو هذا يشعر في نفسه بوجوب الاندماج في العالم ، يبادله حبًّا بحب ، وعطفاً بعطف ، فهو عندما يسخر الطبيعة ، لا يسخرها لانهُ قهرها وأذلها ، ولكن لانهُ فهم منها أسرارها فأحبها ، وشعر في نفسه بأنهُ منها وأنها من ذاته ، وألاّ حواجز تحول بينه وبينها ، فهو لا يفرق بين ما هو انساني متصل بنفسه ، وبين ما هو طبيعي متصل بالكائنات ، بل هناك وحدة تجمع الكل في رباط واحد ، هناك قوة الله التي خلقتنا وسخرت بعضنا لبعض لمناصرة الفكر والعقل والحياة والحرية

والحضارة الغربية قد وضعت العلوم ، وسخرت العقل البشري لقهر الحياة واذلال الطبيعة ، بينما نرى الحضارة الشرقية فيما يقرره تاجور في قوله :

« إن ادراك العلوم الطبيعية يجب ان يلهم نفوسنا المسرة بالمعرفة والبهجة بالحياة وأسرارها . يجب ألا تنحدر الى المعرفة بالعلوم الطبيعية طلباً للأنانية ولا نهم الكسب المادي من تسخير الطبيعة ، ولكن يجب ان يشدنا اليها ما نتوخاه لها ونحققه ، بشعور عاطف متبادل بيننا وبين الطبيعة ، فيفيض علينا فيضاً غزيراً من السرور والصفاء — إن العقل الهندي لا يتردد في الاعتراف بأواصر القربى بين الانسان والطبيعة ، ويرى ان وحدة الكون جوهرية ، يجب ألا تكون موضع تفكيره او تأمله الفلسفي فقط ، ولكن يجب ان تكون وحدة الكون غايته من الحياة ، يحققها بالجهد المبذول ، بالشعور والعمل » .

فمدرسة تاجور ، تدعو الى رفع الفوارق بين الانسان وبين الطبيعة ، وتمثل حكمة الهند التي تقول بعَدّ الدنيا والانسان حقيقة خالدة واحدة ، وفي هذا يقول تاجور :

« كم يكون الانسان في غيبوبة من السجن اذا هو لم يحقق صلته بالعالم ، وكم يكون حرّاً مطلقاً عندما يتعرف الروح الخالدة الكامنة في الاشياء التي حوله . عندئذ تتكشف له الدنيا أماً وزوراً ، في أروع معاني الرحمة والاحسان والعطف ، وعندئذ يشعر الانسان بأنه في فيض كامل من الحق ، وان السجن بمغلوقات والاغلاق قد تم »

فالطبيعة والانسان في نظر الشرق كائن واحد ، ولا يمكن للفرد ان ينقطع عن العالم ، بل هو موصول به روحيًّا ، وفي هذه المعاني يقول تاجور :

« ان الفرد لا يمكن ان يعيش انساناً فذاً ، بل عليه ألا يهمل مكانه من الطبيعة الخالدة ، وإلا أرهق أعصابه ، إذ لم يأخذ مكانه من اللانهائية ومطالب الروح . ويجب عليه ان يفهم انه وإن جاهد وبذل في الحياة ما بذل ، فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه ، ولن يكون كالنحلة تدبر غذاءها من جهدها طعاماً لها طول العام ، فإن الانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسمه من مختزن ، ولا بد من مدد موصول بما حوله من العالم . يجب أن يدرك انه اذا ما حبس نفسه ، وقصرها على الاحساس بالذات وبالانانية ، واذا ما عكف على نفسه يجتر الموت ويلتمس منها التغذية ، ردّت نفسه الى العطب ، وتمزقت إرباً ، واكل بعضها البعض الآخر ، فهو مفتقر الى ما حوله من عنصر الحياة الاخرى ، هو مفتقر الى ان يحاط جوّه متباً ، فإن نزعت عنه ، حرم الفرصة ، وأصبح ثانياً كرهين يعاب . وتجردت بروته الروحية من المروءة وعزة النفس ،

واندفعت نفسه تضرى في السفه والاسراف ، وقد انقطعت بها وشيجة الحياة الجامعة ، فتصبح الشهوة غاية له في ذاتها ، ويصبح أنانيا ، ثم ينقلب الى نار تذكي لهيب لتأكل ما حولها ، ثم يكفهر غيبا . تتأى عن نفسها ، وتصبح حياة الفرد مفرغة مخيفة » (١)

وتدعو مدرسة تاجور الى تعاون المدنيات على الخير والبر والسلام بأن تتلاقح هذه المدنيات بعضها ببعض ، لتوليد ثقافة عالمية ، لا يشعر فيها الانسان بنفور أو بؤس أو فاقة روحية ، فالحضارة الانسانية ، التي لا تعرف الوطن ، ولا اللغة ، ولا الجنس ، ولا اللون ، هي رسالة مدرسة تاجور ، التي ينبغي ان تعم الدنيا وتشمل الوجود ، ولا بد للوصول الى تحقيق هذه الرسالة من ان يشعر كل فرد بالتوافق الروحي مع ما حوله في العالم

« إن قلب الانسان ، هو هذا المكان المقدس ، الذي يشعر منه بالتوافق الروحي ، بينه وبين الاشياء التي تحوطه في العالم ، حيث تلتئم روحه بروح الدنيا . إني لا أستطيع أبداً ان آخذ الاشياء على غير هذا الوضع ، وانها لخديعة للنفس حقاً ، لو استمسك التاريخ بإعادة نفسه ، وتكرار احداثه ، على شاكلة واحدة لا تتغير . وانه لخير للروح العامة ، ان يلتئم الناس على اختلاف أقدارهم في سوق البشرية ، عارضة منتجاتهم الروحية والفكرية المختلفة ، لان بعض الانتاج هو في الحق متمم وضروري للبعض الآخر ، إن كل ما أرغب القول فيه : هو ان الهند قد أهلت لي مطلع وجودها ونشوء اتجاهها على أحداث ملائمة ، كان فيها الخير والبركة ، فاستغلتها فرصة متاحة للتفكير وإنعام النظر ، والكد ، ومجاهدة النفس ، فسبرت أغوار الوجود ثم أنجزت من هذا البذل الروحي شيئاً له قيمته للبشر ، فلك بالتاريخ البشري طرائق متباينة ، ولكنها طرائق تدعو الى تكوين انسان كامل نال نصيبه من جميع المدنيات . فلكي ينمو الانسان نمواً كاملا ، لا بد له من تلبية ما يحتاج اليه تكوينه من العناصر ، والمواد الحيوية المختلفة التي تدعم حياته المركبة . فغذاؤه إذن يجب ان يكون مختلف العناصر مجلوباً اليه من حقول متباينة التربة

والحضارة قوالب وأمم ، يجهد كل شعب في ان يجري له منها ما يصلح ، لتخريج أناسه ، رجالا ونساء ، في أوضاع ، طبق مثله التي يؤثرها تكوينه ، وكل شعب يرى فيه حضارته وقوالبها ، في جميع نظمه وكل تشريعه وتقنينه ، وتحديد مستوى الجزاء والعقاب ، بل ان الحضارة تبسط ولايتها على ما هو أبعد من التشريع والتقنين ، فلها الولاية على الوجدانيات ، وما تستشعره الجماعات والافراد من أحاسيس ومشاعر مختلفة

وتجاهد حضارة الغرب بما اخترعت من قوى ، لتجعل من البشر أناساً يسيطرون على الطبيعة ، قد أوتوا من عقول وبسطة في المعرفة ، وتعمل الى ان تستنفد الشعوب أبلغ مداه ، في بسط قوى الانسان على ما حوله من كائنات ، والى ان يعد الفرد مواهبه للوصول الى حق الملك والسيطرة لاخضاع الحياة واستثمار ما بين يديه وما خلفه من قوى ، وامتلاك كل هذا للغلبة والانتصار على الطبيعة — فالمدنية الغربية تربي الفرد ليعد نفسه ليكون حرباً على غيره ، وخصماً مجاهداً للطبيعة وسائر الانواع ، وليعد ما استطاع من قوة وذخر وسلاح لاذلال الحياة »

هذا هو رأي تاجور في الحضارة الغربية بينما يرى ان في حضارة الشرق المثالي السامية التي تسع الحضارة العالمية التي ينشدها

« وأما حضارة الهند القديمة فقد اتجهت الى مثل عليا ، الى هدف آخر غير الذي ترمي اليه حضارة الغرب ، بذلت في سبيله جهودها كاملة . فلقد أهملت ما عني به الغرب ، من احراز للقوة وبسط للسلطان ، ولم تدعم نفسها بوسائل الهجوم أو الدفاع المادي ، في سبيل حيازة الثروات ، وجلب الاموال ، او فرض النفوذ السياسي على

(١) سعيد هاتا

الغير . . لقد اتجهت الحضارة الغربية الى الفوز بحياة من طريق الاثرة والربح والتأمل وادراك الوحدة والاستغراق في البحث عن الروحي ، فحقت فوز المعرفة وتقدمت البشرية الى مدنية كريمة ، كمدنية روحية — كالفجر الذي القديم — ان نزعة التطرح بالحرية هي ما تبغيه الحضارة الشرقية » (١).

يلتفت تاجور بعد ان أبان الفروق بين المدنيـة الغربيـة والمدنية الشرقية ، يلتفت الى دعوته التي جاءت رسالتها، مؤمناً بها عاملاً لها، فيدعو الكافة الى مدنية عالمية، لا أثر للجنس ولا للون ولا للغة فيها . وهو يدعو العالم عن طريق الحقوق الفطرية التي للانسان ، وعن طريق الوحدة الروحية التي جهدَ في اقناع العالم بانها الدعامة القوية التي يجب ان تنهض عليها حقوق الانسان في الحياة دائماً ولم يدعهُ عن طريق العقل والتفكير وحدهما

ان تاجور يريد ان يطهر المدنية الغربية مما هي عليه من أسس عنيفة منحرفة عن طبيعة السمو والحياة ، ويراها مدنية قامت على قيم من الاثرة والحرب والغلبة وانكار الحقوق والاستهتار والابتعاد عن مطالب الروح والاندماج في المادة والالحاد — فهو بهذا يعمل على انقاذ الجنس البشري بتوجيهه الى المدنية الفاضلة المستقيمة فهو يأبى العنف ، وينكر الحرب ويمقتها مقتاً كبيراً ، ويرى الامة التي لا تستطيع ان تعيش الاّ بحماية سلاحها أمة مريضة الروح ، لا تعيش الاّ على مادة الجسد وحده ، وكم جلّت حسرته وانهمرت دموعه يوم زار اوربا عقب الحرب الكبرى (١٩١٤ — ١٩١٨) ويوم رأى ارضها غارقة بدماء الملايين من البشر ، ويوم سمع صوت الجندي المجهول يئن ان اتخذوني رمزاً للغدر والتقتيل ولا تتخذوني رمزاً للتضحية والوفاء . كم بكى يوم رأى اوربا متشحة بالسواد بعد حرب طاحنة أذاقتها اهوال افراد من القادة والزعماء . وكم رفع أكفه الى الله طالباً المغفرة يوم أيقن ان شروط السلام التي وضعت ، والتي سارت عليها اوربا بعد هذه الحرب ليست الاّ اسباب حرب جديدة ستقضي اوربا والعالم جميعاً فوق بركان جهنمي لا يهدأ ، أيقن تاجور بعد ان زار اوربا ان المدنية التي تتخذ الحرب قاعدة جوهرية لوجودها لا يمكن ان تكون مدنية فاضلة لله فيها صوت او فكرة او دعوة من روحه، وان مدنية لا تقوم الاّ على أسس الانانية والاثرة التي يحميها السلاح والغاز الخانق ، انما هي مدنية جارفة سناً كل عناصرها كما تأكل النار نفسها يوم تزول . ولقد حاضر تاجور شعوب اوربا وأميركا ، وقذف في وجوههم كلمة الحق ورماهم بنفسه وحوث في ذكر من الانسانية ، واطلعهم على صور جميلة من نفسية الشرق، صور الحب، وادراك الحق والجمال، والتعاون الروحي ورتل فيهم اغانيه الخالدة، فعنت وجوه الملوك والامراء حسرة وكآبة ، اذ حمّلهم مسئولية ضياع الارواح البريئة في الحرب

(١) كانت تاجور في ورقة في هذا الفصل مقتبسة من محاضرة له ألقاها في مدرسته ونشرها في الفصل الاول من كتاب سماه « بضرورة علاقة الفرد بالعالم »

الماضية ، وأكد لهم ان الفائز في تلك الحرب انما هو خاسرها الفاشل ، وان الضحايا ستثأر وتنتقم في يوم قريب . ولقد هاله من أمر اوروبا ان رآها قد أسرفت في الاثرة والانانية وفي العصبية الجنسية الى أبعد حد نتيجة لفوضى الحرب التي خلّفت مبادىء اقتصادية وخلقية لا تستقيم مع سلامة الحياة وحريتها ، وأكد لهم ان اعصابه لا تقوى على احتمال التفكير في نتيجة هذه العصبية ، لأنها ستؤدي الى حرب أشد قسوة مما سلفت ، الى حرب حيوانية ، بعيدة عن القلب والروح ، لأنها حرب العصبية والاجناس ، وان المدنية الغربية صائرة الى الانقراض كلما ابتعدت عن روح الشرق الكبير الذي يدعو الى الوحدة الروحية والسلام والمحبة . ولقد تأثرت اعصاب تاجور يوم علم بان اليابان قد اجتاحت جارتها الصين ، وبكى لانه شهد اليوم الذي اصيب فيه الشرق بروح الغرب الفاتكة المريضة ، واما الحرب الحديثة[1] فقد لحقته مريضاً يعاني آلام الاعصاب، ولكنها ولا شك كانت امراً يتوقعه نتيجة للوضع الاوربي الذي نشأ بعد الحرب الماضية .

ولقد سمعت تاجور وهو يحاضرنا ، يوم احتفلنا به بعد زيارته لأوربا في فندق شبرد في ديسمبر سنة ١٩٢٦ ، وهو يقول :

«لا أشك مطلقاً في ان قد وجدت أمم من قبل ثم بادت فانية من حروب طاحنة في سبيل أغراضها . ولا تزال الآن في مجاهل أفريقيا أمم تسير في طريق الفناء ، وأمم الغرب ، على ثقافتها ، لا تقل في هذه الناحية جهلا بالوحدة الروحية عن هذه الشعوب المتوحشة ، لاخذها في حياتها بخطة الاثرة وعد الحرب والسلاح ضماناً للسلام الاجتماعي ، بل ان الامم الغربية ترى كما ترى هذه الشعوب ان الغزو والتدجج ضرورة لبقاء الحياة . ولئن كان هذا ممكناً تصوره يوم كانت الحدود الجغرافية حقيقة واقعة تفصل بين الامم والقبائل ، وتجعل كلا يعتز بكيانه وبجنسه ، وتجعل لون أصحابها وسيلة لحرب من كانوا من لون آخر ، فلم يبق لهذا التصور اليوم من سبيل ، بعد ان أصبحت الحدود الطبيعية لا حقيقة لها ، لاسباب أهمها تقدم المواصلات وسرعتها ، والتمازج العقلي بين الامم . لهذا يجب ان تمحي الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون . ويجب ان يشعر العالم ان هنالك وحدة روحية تربط أممه المختلفة .

ولقد آنست في أثناء سياحاتي في البلاد المختلفة ، في كثير من المفكرين ، اتفاقاً وإياي في آرائي ، وثقة تمثل ما آتي به بأنه سيأتي يوم تسود فيه هذه الفكرة جميع الشعوب . ولقد احتفل بي البسطاء السذج من الناس في بلاد شتى ، لانهم أحسوا في كتاباتي الدعوة الى هذه الوحدة الروحية التي تصبو اليها نفوسهم .

وأما الوسيلة لتغيير الانانية وإزالة التعصب فليست هي الحديد والنار ، وانما هي في انتشار الافكار السليمة بين الشعوب وسعيها جميعاً لادراك الحقيقة ، فهذه الحقيقة ، الحقيقة المجردة ، الحقيقة المطلقة ، يجب ان تكون غاية الغايات : لكل شاعر ولكل مفكر ولكل مصلح اجتماعي ولكل فيلسوف ، ويجب ان تكون غاية الغايات للانسان الكامل ، ويوم يأتي الوقت الذي يصل فيه كل امرىء للحقيقة ، فاذا رآها لم يتردد في اعلانها يومئذ يكون الانسان قد وصل الى الكمال حقاً ، وفي هذا اليوم يتم السلام على الارض . إن السلام لن يترتب على عمل صناعي مطلقاً كالاتفاقات الدولية وما اليها من معاهدات ومؤتمرات لنزع السلاح . إنما الوسيلة الوحيدة لتحقيق السلام هي الوحدة الروحية . وفي رأيي قد أحسست بأن هذه الوحدة قد بدأ ظهورها في العالم بعد الشعور بويلات الحرب وتدميرها ؟ »

---

(١) الحرب التي نشبت في سبتمبر سنة ١٩٣٩

في هذا الخطاب الوجيز يتلخص تاجور دعوته إلى المساواة ، فيقول : « يجب ان تنمحي الأثرة . ومن يزول التعصب للجنس واللون ، لانه وجد المدنية الغربية تنهض على هذه الأخطاء ولانه يخشى أن تنهار هذه المدنية ، وفيها الكثير من ثمرات الفكر البشري ، وما يعد ضياعه خسارة لكنز بشري ثمين قد لا يعوض في أجيال وقرون

ولقد عارض فيلسوفنا ، بهذا المبدأ السامي مذاهب المساواة التي يؤمن بها العالم المتمدين في القرن العشرين ، وهو وإن لم يكتب رسالته في تفصيل علمي على نحو ما يكتب علماء الاجتماع بحوثهم ، الا ان رسالته الروحية تؤدي الى وضع المساواة في نصابها الحق ، ولانه يريد ان يبتعد عن الاسلوب العلمي لما يحتاج اليه من مغالطات في المنطق ، لان دعوته روحية لا تحتاج الى غير اخلاص في الأداء وإيمان بها

فعلماء الاجتماع والفلاسفة الذين نظموا مذاهب المساواة ، وقرروا استحالتها بين الامم والشعوب ، هم صورة للمدنية الغربية المنهارة ، بينما نجد تاجور صورة للشرق الكريم الذي يبشر بدعوة روحية ان سلكتها المدنية البشرية كانت المدنية الفاضلة التي تستمد كيانها من عناصر السماء والروح

ولكي نفهم اصالة الفكرة التي ترمي اليها رسالة تاجور « رسالة الشرق ، رسالة الوحدة الروحية والمساواة » يجب ان نلم بما يناقضها من مذاهب المساواة في مدنية القرن العشرين ، وهذه المذاهب هي رسالة الغرب المنهار

ولعل رسالة الغرب تتلخص في فلسفة نيتشه ، وفي العلوم التي حاول جوستاف لوبون ان ينظمها في ابحاث علمية . لقد أراد حقاً ان يؤسسا مدنية الغرب على اسس من الانانية ، وقد زعماها رسالة صحيحة في اساسها واوضاعها ، دون كذب وملق ، لانهما يؤمنان بدعوتهما ، كايمان تاجور الكريم بالدعوة التي تناقضها . فنيتشه وجوستاف لوبون صورة للغرب ، لا يؤمنان بحق للانسان الضعيف ، ولا للانسان المحروم من القوة ، ولا للانسان الذي لم تهيء له الطبيعة أن يكون من جنس اوروبي أو لون من ألوان الشعوب الاوروبية — هما رجلان لهما نزعة الاستعمار ، يريان من حق القوي أن يأكل الضعيف ، احدهما يقيم آراءه على علوم كانت مبتسرة الى زمن تقرير هذه الآراء ، بل انه التمسها مغالطة منه . فهو يبني بحوثه على علم « الانتروبولوجيا » اي علم دراسة الانسان على مجموع العلوم النفسية والتشريحية والوراثية .

فهو هنا يحدد ويرتب الناس ، طوائف وأجناساً وأنواعاً ويناقش نظرياته الاجتماعية على ضوء ما يتباين وما يتحد من صفات هذه الاجناس البشرية . وهو من هذا يصل الى أن الاختلافات الجنسية واللغوية والتشريحية اصول في تكييف المدنيات وحقوق الانسان في تغيير

الجماعات من حيث الميول والمزاج العقلي أو بعبارة أوضح : هو يقرر بأن المساواة مستحيلة بين الامم ، او هي مستحيلة بين الافراد ، لأن الأفراد أو لأن الامم مختلفة اختلافاً جوهرياً في الوراثات والصفات التشريحية والامزجة العقلية واللغوية ، فالناس إذن متفاوتون ، لا يتساوون في الحقوق ، والامم اذن لن تتساوى أمام ميزان العدل العام ، وعليه فلا [illegible] من أمة حاكمة مستقرة ومن أخرى محكومة مستعبدة

هذا النظر ينقضه تاجور ، وتأبى فطرته الانسانية ان تؤمن به ويرد عليه في قوله :

« يجب ان تمحي الاثرة ، وان يزول التعصب للجنس واللون »

ولا ينكر تاجور الخلاف الذي اشتجر بين الناس منذ القدم ، ولكنه ينكر عليه أنه صدر عن نزعة انسانية فيقول :—

« لقد نشأ الخلاف ، وقام النزاع بين البشر منذ فجر تاريخهم الاول ، ولقد سبقت بعض الجماعات بعضها الآخر ، وتقدمت غيرها مصادفة ، ثم أخذت تستغل ضعف الضعفاء ، ثم تكبر عتواً منها ، ثم أغاظت لها البلاد والملوك . إن هذه العادة ، عادة السيطرة والغدر قديمة في البشر ، ولكنا على الرغم من قدمها نجزم بأنها ليست من الانسانية في شيء ، وليس لأمة متحضرة ان تبني عظمتها على إذلال الذين جردوا من انسانيتهم ظلماً وعدواناً ، وحبست أرواحهم في سجون مظلمة من الغفلة ليس للنور والعلم والمدنية اليها من سبيل »

فالمساواة اذن حق بشري مقرر ، ولكن الطغيان يهدمها ، وينكرها في مناطق كثيرة من هذا العالم

ولئن كانت الأثرة والانانية من مظاهر القوة للمدنية الحديثة ، الآن تاجور يقول فيها أنها من مظاهر الانهيار لهذه المدنية فهو يقرر « لقد أسرفت الامم في الأثرة والانانية وفي العصبية الجنسية التي يتمسك بها فريق كبير من أهل الامم المتحضرة ، على ان هذه العصبية هي أكبر مظاهر ضعف المدنية الحاضرة ، فهي التي تجر الامم الى التطاحن لنيل غايتها ، وهي التي تثير بينها حروباً مهلكة مدمرة ما كانت لتقع لولا هذا التعصب الخاطيء ، وتلك الأثرة التي استكنت في صميم المدنية الغربية »

ولقد حمل كتاب الفيلسوف الالماني (ازوالد اشبنجلر) « سقوط الغرب » هذه النذر التي تضمر للمدنية الغربية الانهيار ، وفسر بطرائقه العلمية دعوة تاجور الروحية ، ولقد مهد لبحثه بقوله :

« إنه يريد أن يجرب لأول مرة تعيين مجرى التاريخ ، وأن يوضح مستقبل المدنية التي تسود العالم والتي بلغت ذراها ، وأن يصور المراحل التي ستعقب في سقوطها » . [ثم قارن اشبنجلر المدنيات فقال]: « بينما نرى الانسان في المدنية الغربية التي يمثلها الشاعر جوته بفاوست الذي لا يعرف إلا الأنا ، أي الذات المستقلة الى نفسها لنفسها ، وبينما نرى الانسان في المدنية القديمة الذي يمثله اليونان (بأبولون) يعد نفسه (واحداً) من المجموع مسئولاً عن شخصه ، إذ نرى الانسان في المدنية الروحية (مدنية الشرق والاسلام) لا يعد نفسه

إلا جزءاً من كتلة كاملة تجمع كافة الناس جميعاً (١) تتمثل في كل جزء منها في كل فرد من أفراد أو جزء
وإن المدنية الشرقية هذه تؤمن بشيء آخر متصرف يكون في وحدة الجماعة ويبعث الفرد ذاته على التفكير فيه باعتبار الفرد جزءاً من كل وأن هنالك روحاً تمد بروحه وتجمعه بالجماعة هذه الروح المقدسة هي (الله) وهو مقصود من الخلق في قصائده وتمدحه وأننا لنستطيع أن نميزه بالمعاني وصف المتن والتفكير من الصلات أن تدع الآلهة في أمر والتفكير تبسط نفوذها على القوى الخفية الخرقة قد (٢).

وروت إحدى الصحف الانكليزية [٣] أن تاجور كان في لندن في أثناء زيارة نجمة السينما المشهورة ماري بكفورد لها، وحدث أن كان الفيلسوف يمر في طريقه الى الدار التي يسكنها أثناء استقبال الشعب لهذه النجمة الجميلة التي ظفرت باستقبال فريد لم يظفر بمثله ملك من الملوك فتبعه صحفي وسأله رأيه في احتفال الشعب بنجمة السينما فأجابه حكيم الشرق

«دعا ذلك بعض مظاهر حضارة الغرب المادية التي تدعوه الى التعلق بما يفنى، والانصراف عما هو باق خالد، والحضارة الحقة، الحضارة التي تشرّف الانسانية، وتدل على سموها وعظمتها هي النقيض من هذا، وهي الداعية الى التعلق بالخلد الماثل في روح الوجود»

ويرى تاجور في صلة الشرق والغرب غير رأي كثيرين يؤمنون بقول الشاعر الانكليزي رديارد كبلنج «الشرق شرق والغرب غرب، ولن يلتقيا» وهو لا يقر الكتّاب والأدباء والساسة الذين يقولون بوجود الفوارق الطبيعية بين الغرب والشرق التي تحول بين قيام التفاهم بين الثقافتين، أو احلال ثقافة منها مكان الاخرى، فيذهب تاجور غير مايذهب اليه علماء دراسة الفوارق الطبيعية التشريحية والانتروبولوجيا الذين يدرسون فوارق المدنيات من فوارق الطبيعة لتكوين الاجسام والجماجم بين الشرقيين والغربيين، ثم يقولون باستحالة التمازج بين الحضارتين المختلفتين. إن تاجور ينظر الى الحضارة كأنها ميراث بشري، لا وطن له ولا جنس ولا دم ينتمي اليه، ويؤمن بأن الاخطاء التي اعترضت طريق الحضارات انما هي أمراض يمكن البرء منها، لأنها من عمل أفراد استغلوا نفوذهم لتوجيه الأمم طبق رغباتهم وانانيتهم وضحوا بدم البشر في سبيل تحقيق ماتتطلع اليه انانيتهم واطماعهم. ودعوة تاجور ليست دعوة جديدة جاء بها عن طريق تفكيره، وانما هي دعوة استمدها من تعاليم الفلسفة الشرقية، من تعاليم الهند القديمة المعروفة بمذهب (أوتيوزسوقي) الذي يرمي الى احياء العالم من طريق انبعاث الروح وتوحيد الجانب الروحي

فنظرة تاجور الى الحضارة الغربية ليست الا نظرة مشفقة على ما في هذه الحضارة من كنوز بشرية ثمينة، وهو يرى ان الغرب قد أصيب بمرض وبيل، مرض الانانية والتعصب للجنس واللون، وان داء الغرب هو الداء الذي سيقضي على حضارته، لانه يحرم الحضارة

---

(١) قال تعالى: «من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الارض فكأنما قتل الناس جميعاً ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعاً» (سورة المائدة) (٢) مجلة هندية من الشرق تصدر ببرلين سنة ١٩٢٥
(٣) جريدة السياسة ٢٩ / ١١ / ١٩٢٦

من عناصر البقاء والتجدد، ومن الروح المعنوية الجامعة التي تبعث بهج الحياة فيها، وتلهم القادة والزعماء طرق الخير، وتمحو الأثرة وإهدار الكرامة، وتقرر مبادئ المساواة كحق مقتضى لكل بشري بمقتضى انسانيته واشتراكه في حمل تبعات الحياة، وان حرمان أمة من الأمم أو شعب من الشعوب نصيبه في الثقافة والثروة ليس نتيجة نقص في تكوينه الطبيعي، وإنما هذا الحرمان هو نتيجة تحكم شعب قوي بآخر، وحرمانه إياه حقوقاً له مقررة منذ الأزل. وان قوانين الوراثة والتناسل ونظم الحكم والتعليم لا ترفع الانسان قدراً على انسانيته، وان صقلته وهذبته؛ وان حرمان الناس تنظيم الحياة المتحضرة وبسطها على الشعوب المحرومة ليس إلاّ أثراً من آثار الحضارة الغربية التي استأثرت بمناهج الحضارة التي اشتركت فيها الشعوب جميعاً منذ خلق الانسان. وان ما يترتب على هذا الحرمان هو اثارة الحروب التي ستقضي من غير شك على عناصر الانانية القاتلة

***

ويرى تاجور ان العالم يخطئ الطريق عند ما ينشد السلام بضمان صلح أو بعقد اتفاقات دولية. وإنما يرى الوسيلة الوحيدة الى السلام في تحقيق الوحدة الروحية ونشر الافكار السليمة بين الشعوب؛ وتستطيع ان تقرر بأن لتاجور فلسفة اجتماعية يريد بها ان يبني للمجتمع البشري نظاماً يعيش في كنفه، وان هذه الفلسفة مدعمة بعقيدة قائمة على حقائق، تسير بمقتضى طبيعة الحياة نفسها، وتأتلف مع ما يجب ان تكون عليه الانسانية من وحدة روحية، وثقة متبادلة تنشأ بين الفرد والفرد، ثم بين الفرد والجماعة، ثم بين الجماعة والجماعات الاخرى، أي ان فلسفته ترمي الى جعل الحياة تلبي أبداً مطالب الوحدة الروحية العامة، وتحث المجتمع البشري على ان يسير طبق ما تطلبه الحياة من حب ووحدة وسلام

وتاجور بهذه الفلسفة يناقض المدنية الغربية في أسسها القائمة على الأثرة والانانية، وهو يريد ان يشفي المدنية البشرية من داء الغرب؛ أو هو يرمي الى نقد الحضارة وتنقيتها من العوامل الهدامة المنبثة في صميم تكوينها، والتي لازمت انقراض الحضارة البشرية في صورها المختلفة، فهو مشفق على حضارة الغرب ان تنهار ما دامت تسير في طريق الحضارات المنقرضة الاولى

وتاجور، بدعوته الى الروحية، يبشر بفلسفة الشرق، ويدعو الى الدعوة الهندية التي تمخضت بها عن ضمير الأديان التي نشأت في الشرق جميعاً، فهو يقول: إن وحي الهند يختلف عن هذا الذي يوحي به الغرب، إذ أنه يتضمن العالم قلب الانسان، وينظر اليهما كحقيقة واحدة كبرى،

وفلسفة الهند تعتد بالانسجام الكائن بين الفرد والجماعة ، وتشعر بأن الانسان قد لا يلتئم بما حوله من كائنات اذا لم تقم بينهما الألفة والتعاوف الصحيح

فدعوته الروحية دعوة شاملة جامعة بين البشر وعناصر الطبيعة جميعاً ، وليست مقتصرة على ما يبذل من جهد في ربط البشر برباط واحد من الألفة والمحبة ، وهو يكشفنا عن سر الحضارة الشرقية التي تعنى بالروح والمثل العليا ، فيقول فيها : « لم تكن رغبته في التملك والحيازة ، ولكن كانت رغبته في فهم الاشياء وادراك حقيقتها ، وتوسيع نفوذ ضميره عليها ، بأن ينمو هذا الضمير نمواً متصلاً باتساع آفاق الطبيعة التي تحيط بهذا الانسان »

والحق في نظر تاجور ليس الحق الذي يراه الغربي المتحضر ، الحق الذي تعينه وتعرف اوضاعه القوة والمادة ، وانما « الحق هو ادراك شامل للكائنات ، وان السبيل الوحيد للوصول الى الحق انما يكون بتخلل نفوسنا الاشياء لندرك كنهها »

فتاجور يدعو القادة عند ما يفكرون في مشكلات الحياة الاجتماعية والعمرانية أن يوحدوا أنفسهم ويربطوها بالعالم جميعاً برباط روح جامع ، وان يدركوا ادراكاً كاملاً حقائق الكائنات ، وما يحيط بهم من امم وقبائل لها حق الحياة مثلهم في هذه الدنيا . ويدعو تاجور الى وجوب الاتصال بالعالم ، ويرى في هذا الاتصال بقاء وغذاء متجدداً للحياة ، ومعنى هذا انه يدعو الامم الى تبادل الحياة والثقافة والمنافع المستمرة ، فهو يقول :

« يجب أن يعلم الانسان انه وان جاهد وبذل في الحياة فلن يخلق عناصر وجوده في ذاته من نفسه ، ولن يكون كالنحلة تدير عسلها من جهدها ... فالانسان لا يمكن ان يعيش على ما في جسده من عناصر ولا بد له من مدد موصول مما حوله من العالم ... فاذا ما عكف على نفسه يجتر القوت ويلتمس منه الغذاء ذبلت نفسه من العطش وتمزقت إربا ... »

هذه هي الدعوة التي تحمل في رسالتها المعنى السامي للانسانية ، لان من يعيش في نفسه لنفسه يدنو من الصفات التي تلصق الانانية بالفرد وتنزع به الى الأثرة وتبعده عن الشهامة والغيرة للجماعة وحب الخير للكافة . بل ان هذه الدعوة تدفع الانسان الى ان يكون دائماً عالمياً في تفكيره وثقافته ونظره نحو الاشياء

رب إله البشر جميعاً
تعرفت على كل قوم وجنس
يا منبعاً عن جميع الامم وان اختلفت ألوانها
وحد بين قلوبنا وجعلها تبادل المحبة
وأرشدها لروح الحق والعدل